المحور الثامن : علاقات الأقطار المغاربية الخارجية

باعتبار أن بلدان المغرب العربي كيانات شبه مستقلة فقد ربطت علاقات خارجية بعضها في إطار التضامن الإسلامي مع الدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية ، وبعضها في إطار التوازن الدفاعي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط .

1- مع المشرق الإسلامي (الدولة العثمانية):

باستثناء المغرب الأقصى، فقد اتسمت علاقات الجزائر تونس وطرابلس الغرب مع الخلافة العثمانية بالتعاون والتبادل الثنائي المتمثل في مساعدة العثمانيين وطرد الإحتلال الإسباني من سواحل البلدان الثلاثة منذ القرن السادس عشر ميلادي.

كما ساهمت البلدان المغاربية في دعم الدولة العثمانية في حروبها ضد أوربا في معركة ليبانت سنة1571م والتصدي لحملة نابليون على مصر 1798م وفي معركة نافارين 1827م .

ورغم محاولات الإستقلال عن اسطانبول من طرف عواصم البلدان المغاربية خاصة خلال العهود السياسية الأخيرة ، فقد حافظت البلدان المغاربية على علاقات خاصة وأبقت على علاقات تعاونية عسكرية وروحية مع السلطان العثماني ودانت بالولاء للسلطان العثماني واستقبلت كل ولاية واليا معينا من قبله وبقي إسمه يذكر في خطب الجمعة والعيدين ويضرب على السكة، وخصصت قيادات بلدان المغرب العربي أوقافا للحرمين الشريفين وأنشأت مؤسسات لتسييرها وايصال عوائدها للبقاع المقدسة ثم الى فقراء الأماكن المجاورة للحرمين الشريفين .

ورغم ذلك تمتعت تلك البلدان باستقلال فعلي عن اسطانبول فكانت تعقد السلم والحرب والهدنة مع أعدائها ، دون الرجوع إلى الباب العالي وتبادل حكامها القناصل والرسائل والهدايا مع الدول الأجنبية وتعرضت سواحلها لقصف من دول صديقة للسلطان .

2- العلاقات المغربية العثمانية

أما علاقات المغرب مع الدولة العثمانية فاكتست أهمية خاصة، باعتبار أن المغرب الأقصى ظل البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للسيادة العثمانية ، كما أنه كان يمثل مسرحا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوربية، والإسلام ممثلا في دولة الخلافة العثمانية . وانتهج حكامه سياسة حافظت على استقلالهم ، وعليه ازدوجت العلاقة بين التوتر والمواجهة أحيانا وبين التعاون أحيانا أخرى .

ونشير هنا إلى أن العثمانيين حاولوا منذ البداية إتباع سياسة الاحتواء اتجاه السلاطين السعديين الأوائل، ويتجلى ذلك في السفارة العثمانية إلى السلطان محمد الشيخ حين اقترحت عليه المساعدة لمحاربة المسيحيين مقابل الخطبة باسم السلطان العثماني .

وبسبب معطيات الصراع العثماني الأوربي، لم ينجد العثمانيون السلطان عبد الله الغالب(1557-1574م) ، ضد أخيه عبد الملك السعدي(1576-1578م) الذي التجأ إلى الأراضي الجزائرية ،لكنهم تدخلوا فيما بعد في الصراع الداخلي لصالح عبد الملك ضد المتوكل(1574-1576م)، فدعموه بحملة انتهت بدخوله فاس، وفرار المتوكل الذي استنجد بالملك البرتغالي. وقد قدم عبد الملك للعثمانيين أموالا كثيرة، وهدايا معتبرة مكافأة لهم،وكان يلقي الخطبة باسم السلطان العثماني، ويسك النقود باسمه، وكذلك ساند الباب العالي الملك السعدي،

وهو ما يتجلى في معركة واد المخازن،مما يؤكد التبعية غير الرسمية للباب العالي، كما أن الرسائل العثمانية للسلطان عبد الملك كانت تحضه على الجهاد والتعاون مع أمير إيالة الجزائر .

لكن سرعان في تغيرت العلاقات في عهد المنصور الذهبي (1578-1603م) ، فرغم أنه واصل إرسال الهدايا للباب العالي إلا أنه تلقب بالخليفة وألقى الخطب باسمه، مما يؤكد استقلالية المغرب عن الباب العالي ، الذي بدأ يتراجع نسبيا عن التوسع في غرب البحر الأبيض المتوسط، خاصة بعد حملة ليبانت سنة1571م وانشغال العثمانيين بحروبهم مع روسيا وحلفائها.

وبالمقابل كانت للشرفاء السعديين ومن بعدهم العلويين ، أطماعا توسعية على حساب الواجهة الغربية الجزائرية ، خاصة وأن الشريف السعدي كان قد نظم حملات وصلت إلى حد تلمسان، ثم تواصلت مع بدايات الحكم العلوي، وهو ما جعل حكام الجزائر يرسلون بعثة لإقناع الشريف محمد الأول العلوي (1636-1664م) بفكرة رسم الحدود بين المغرب والجزائر. لكن الملوك العلويين ظلوا يواصلون حملاتهم، خصوصا في عهد المولى الرشيد (1666-1672م) والمولى إسماعيل (1672-1727م) .

والواقع أن صراع الحدود بين الطرفين ما هو إلا غطاء للعلويين الطامحين في الخلافة الإسلامية ، التي يمتلك العثمانيون شرعيتها . واعترف بها حتى فقهاؤهم ومنهم ابن أبي محلي الذي وصف السلطان أحمد العثماني(1603-1617م) يملك البحرين وإمام الحرمين الشريفين .

3:مع افريقيا

شهدت الحواضر الكبرى بإفريقيا الشمالية والغربية على حجم العلاقات التجارية فيما بين إفريقيا المدارية وحضارات حوض البحر المتوسط.

ونتيجة لذلك، ازدادت حيوية ونشاط المراكز الحضرية الواقعة في محطاتها النهائية، مثل غانةوگاو، اللتين شكلتا مهد قيام دولتين سودانيتين بالمنطقة، مما أمّن الوضع السياسي المحلي، وأتاح إمكانيات كبرى لاستقطاب تجار بلاد المغرب.

وتؤكد العديد من المؤشرات، أن المغاربة ساهموا في التجارة الصحراوية عبر عدة مراكز تجارية ما بين مناطق شمال افريقيا وغربها ومنها:غدامس ،ورجلان، توات،سجلماسة،درعةإضافة إلى مراكز أخرى مثل فاس مراكش،تلمسان،غرداية، تقرت، القيروان...الخ.

وقد استغلت القوافل التجارية مسالك تجارية أخرى شهيرة منها مراكش-تمبكتو، فاس-مكناس،سجلماسة-أودغشت،مدينة الجزائر- تمبكتو، طرابلس-تمبكتو،الجريد بتونس-غدامس فالجنوب .

وكانت بلدان المغرب تصدر الكتب والخيل والنحاس والأسلحة وأنواعا من المنسوجـات والبضائع المغربية ، بينما تستورد الذهب و بعـض المنتوجات القطنية والعاج وريش النعام.

وقد تواصلت الحركية التجارية وخاصة ببلاد المغرب الأقصى؛ إذ حاول ملوك بني وطاس بفاس إنعاش العلاقات التقليدية ، فقد أرسل " محمد الوطاسي البرتغالي" سفارة إلى الحاج أسكيا محمد (1493-1528م) .

وكان ممن سار في الوفد السّفاري المغربي الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، الذي دوّن مشاهداته حول بلاد السودان في مؤلفه المشهور:" وصف إفريقيا ".

استمرت العلاقات المغربية السودانية عهد السعديين على نفس الوتيرة خلال القرن السادس عشر، وتوطدت مع العديد من ممالك و إمارات الضفة الجنوبية للصحراء، وحينما اتخذ المنصور (ت 1603م) لقب الخليفة وأمير المؤمنين ، أثار حفيظة العثمانيين ، خاصة عندما استقبل سفارة من عاهل مملكة كانم- برنو (1564-1596م)، "إدريس ألوما"، الذي بحث عن دعم عسكري لمواجهة أعدائه في سنغاي. وموازاة مع ذلك، دعم العثمانيون إمبراطورية سنغاي، مما يوضح الصراع الخفي حول الخلافة وأحقية زعامة العالم الإسلامي .

وما من شك في أن أهم العلاقات الديبلوماسية التي نسجها السعديون مع بلاد السودان، إنما تمثلت في تلك العلاقة التي ربطتهم بمملكة سنغاي على عهد الأسقيين(1591-1493م)، وأدت في نهاية المطاف بأحمد المنصور للقيام بحملة عسكرية، عام 1591م.

وقد أقام المنصور بالمنطقة السودانية من الدولة السعدية، نظام حكم عرف باسم "الرُّماة"، واتخذ من مدينة "طنبكتو" مقرا لسلطته وعين على رأس النظام أحد قواد جنده المخلصين، وأطلَق عليه إسم" الباشا".

وعلى إثر انهيار الدولة السعدية، خاصة بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي عام 1603م، استقل الباشوات(الرّماة) بنفوذهم عن السلطة المركزية بمراكش.

و باستثناء محاولات السلطان مولاي إسماعيل (1727-1672م)، لم يوفق سلاطين الدولة العلوية في تجديد وإنعاش العلاقات السياسية مع "طنبكتو". لكن العلاقات التجارية والثقافية الروحية، ظلت على ما كانت عليه، وهذا ما يفسر استنجاد السودان وفقهاء "طنبكتو"عام (1893م) بالسلطان العلوي مولاي الحسن بغاية درء وصد الغزو الاستعماري الفرنسي للمنطقة.

لقد ظل البعد الديني الروحي حاضرا في العلاقات المغاربية الإفريقية، بتأثير عديد زوايا الطريقتين القادرية والتيجانية. وكان أهل السنيغال وغيرهم من أهالي السودان الفرنسي ينتقلون إلى محاضر العلم الشنقيطية، ثم للمراكز العلمية المغربية، مما مهد طريق التيجانية نحو السودان جنوب نهر السنغال، ومن رجالها هناك الحاج عمر بن سعيد الفوتي(1864-1794م) ، خليفة الطريقة التيجانية ب "فوت جالون" ببلاد السودان فشاع أمره منتصف القرن التاسع عشر؛ ثم طمح لتأسيس دولة إسلامية تيجانية، لكنه اصطدم باحتلال الفرنسيين للعاصمة "سيـگو أو سِـگُ"، عام 1892م . ومهما يكن من أمر فقد انتشرت التيجانية في عدة دول من إفريقيا الغربية خاصة في غانا وشمال نيجيريا، حيث آلاف المريدين التابعين للطريقة التيجانية الإبراهيمية .

4: أوروبـــا

توحدت جهود الأوروبيين في مؤتمر فيينا1815م ثم مؤتمر اكس لاشبيل 1818م ،أين اتفقت دول أوروبا في 20نوفمبر1818م حول القضاء على ما أسموه بالقرصنة البربرية (المغاربية)بتكليف مبعوثين فرنسي وانجليزي منذ1819م ، اتصلا بحكام المغرب العربي ومنهم الداي حسين (1830-1818م) في الجزائرالذي

رفض الامتثال، عكس حكام طرابلس (يوسف باشا:1795-1830م) وتونس (محمود باي: 1814-1824م) والمغرب (سليمان بن عبد الله:1792-1822م)الذين امتثلوا للتهديد الأوروبي .

وبهذا بدأت المرحلة الحاسمة في تقويض أركان البلدان المغاربية. واستمرت طيلة القرن التاسع عشر بدءا باحتلال الجزائر1830م.

وتعتبر الجزائر نموذجا للبلدان المغاربية التي اشتد تنافس دول أوروبا حولها منذ التحاقها بالدولة العثمانية حتى وقعت في يد الاحتلالالفرنسي .

وابتداء من عصر البيلربايات(1587-1518م)، بدأت الجزائر تنسج علاقاتمع دول أوروبا فأرغمتها على دفع إتاوات مقابل ضمان أمن و سلام مراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط .

و من جهة أخرى شنت اسبانيا حملة على مدينة الجزائر في أوت 1519م ، وحملة 1541م بقيادة "شارلكان Charles Quint- " ، باءت كلها بالفشل .

كما حصلت فرنسا على امتيازات صيد المرجان بالسواحل الشرقية الجزائرية (القالة ،عنابة و القل) ، وإنشاء حصن القالة الفرنسي سنة 1561م ، و توقيع معاهدة سلم وتجارة بين الطرفين عام 1628م .

أما في عهد الباشوات (1659-1587م) فتعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر بسبب وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين في الجزائر لتأييد فرنسا اسبانيا في عدوانها على الجزائر، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض وإبرام معاهدة صلح بتاريخ 1628/09/19م. وفي عام 1588م هاجمت الجزائر شواطئ نابولي وصقلية وكورسيكاواسبانيا.كما تعرضت مدينة الجزائر في أوت 1601م لحملة الاسباني " جون دوريا - j Doria" بمباركة البابا ، لكنها باءت بالفشل.

و كثرت الغارات البحرية الفرنسية ضد الجزائر عهد الآغاوات (1671-1659م) ؛ففي عام 1663م شنت فرنسا حملة عسكرية بقيادة "الدوق دوبوفور- Duc Beaufourt" على مدينة الجزائر ، و حملة أخرى انطلقت من ميناء "تولون - Toulon " يوم 23 جويلية 1664م بقيادة "كولبير- Colbert " و الدوق دوبوفور و نزلت بجيجل، ثم كرر ملك فرنسا لويس الرابع عشر عام 1665م هجوما آخرا فاشلا على مدن شرشال و القل و جيجل ، ولم يعد السلم إلا بإتفاقية 7 ماي 1666م. كما هاجمت انجلترا سفن الجزائر عام 1669م ، ثم ميناء بجاية سنة 1671م .

ثم تصاعد العداء الأوروبي بتدخل الاسبان والهولنديين ونجحت الجزائر في مصالحة الهولنديين عام 1663م والإنجليز عام 1671م لمحاربة الفرنسيين .

أما في عهد الدايات (1830-1671م) فقدعرفت الجزائر استقرارا سياسيا واستقلالا عمليا غير رسمي عن الدولة العثمانية في تسيير شؤونها الداخلية و الخارجية، فكان الداي يعلن الحرب و السلم ويعقد معاهدات السلم والتجارة باسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى و يوافق على اعتماد القناصل في الجزائر،دون مشاورة الأستانة .وفي هذه المرحلة تحررت مدينة وهران نهائيا من الإسبان سنة 1792م.

و في عهد محمد عثمان باشا قنبلت الدنمارك ميناء الجزائر عام 1770م.وشن الملك الاسباني شارل الثالث في نفس السنة ، حملة عسكرية فاشلة ضد الجزائر،ثم كرر الاسبان هجماتهم الفاشلة عام 1784م على الجزائر.

وقد تعرضت الجزائر أيضا إلى غارّات أوروبية منها التي نظمها الأميرال الفرنسي " دوكين " في عهد الداي بابا حسن يوم 12 جويلية 1682م لمهاجمة شرشال ومدينة الجزائر،لكنها باءتبالفشل.

وفي عام 1684م أبرمت الجزائر معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة سنة، لكنها نقضت عام 1776م، ليتحول السلم المئوي إلى جملة إعتداءات، ومشاريع لاحتلال الجزائر عام 1830م .

وبسبب غزو" نابليون بونابرت" لمصر 1798م ، أعلنت الجزائر الحرب على فرنسا ، تحت ضغط الباب العالي .وفي عام 1801م أبرم القنصل الفرنسي" ديبواتانفيل - Dubois Thainville" معاهدة مع الجزائر يوم 17 ديسمبر 1801م، أعيدت بموجبها المؤسسة الإفريقية إلى العمل مع إعفائها من الضرائب لمدة عام كامل ، غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا و برزت إلى الوجود مشاريع فرنسا لاحتلال الجزائر ، فقد كلف نابليون بونابرت القنصل "جون سان أندري" لإعداد مشروع لاحتلال الجزائر .و في عام 1802م أرسل ثانية الضابط "هولان" إلى الجزائر لنفس الغرض ، ليأتي في 1808 دورالضابط "بوتان- Boutin "، الذي أعد تقريرا كاملا كانت له أهمية كبرى في احتلال الجزائر مستقبلا .

وقد عرفت الفترة الممتدة ما بين (1789- 1814م) أي بعد انتهاء الثورة الفرنسية ، دخول القارة الأوربية في حروب شاملة عرفت بالحروب النابوليونية التوسعية ، إذ كان نابليون يهدف من وراء ذلك، فرض السيطرة الفرنسية على معظم أوروبا .

وغداة سقوط نابليون عام 1814م وعودة أسرة آل البوربون على عرش فرنسا ، استقبلت الجزائر بارتياح رغبة الملك لويس الثامن عشر في إعادة الوئام بين البلدين .

وبعد انتهاء معركة "واترلوWaterloo" عام1815م ، اجتمع الساسة الأوربيون بمؤتمر فيينا (1نوفمبر1814م - 8جوان1815م) ،لإعادة رسم الخريطة السياسية لأوروبا، لكن النتائج تجاوزت حدود أوروبا إلى دول المغرب العربي والجزائر خاصة .

لقد أرادت إنجلترا التدخل في شؤون الجزائر بإسم محاربة الرق والقرصنة والدفاع عن مصالح الدول المسيحية. وقد قدم ممثلو فرسان مالطة عدة مذكرات إلى مؤتمرفيينا طالبوا فيها بإعادة النظام القديم ومنحهم مقرا في البحر المتوسط تجتمع فيه جميع الأساطيل المسيحية لمحاربة قراصنة الدول المغربية.

وتجسيدا لنيتها في تحسين العلاقات مع الجزائر،قام الملك الفرنسي "لويس الثامن عشر" بتعيين "بيار دوفال" قنصلا لفرنسا في الجزائر في 28 أوت 1815م وحمل هدايا للداي .

وتنفيذا لقرارات مؤتمر فيينا، وصل إلى الجزائر اللورد"إكسمورث" في أوت 1816م على رأس قوة بحرية وقذف مدينة الجزائر مما أدى إلى قطع العلاقات الجزائرية الإنجليزية.

استغلت فرنسـا سوء العلاقة بين الجزائر وإنجلترا، فعقدت معاهدتين في 15 مارس1817م و أكتوبر1817م ، بموجبهما على انخفضت الإتاوات التي تدفعها للديوان مع قنطارين من المرجان للداي .

ولتحويل التحالف الرباعي (إنجلترا، روسيا، النمسا، بروسيا) إلى حلف خماسي تكون فرنسا طرفه الخامس، انعقد مؤتمر" اكس لاشابيل" ، سبتمبر1818م ، اتفق فيهالمؤتمرون على توجيه تصريـح للدول المغربية للحد من القرصنة ، تسلمه الداي حسين في 5 سبتمبر1819م ، ورفض الإستجابة له .

ولترضية الديوان ، أصدرت الحكومة الفرنسية بتاريـخ 28 أكتوبر1819م مذكرة ، أكدت عزمها على إرضاء حكومـة الجزائر، شرط السماح لها دفع الديون لليهودي بكري وقبل الداي بهذا الشرط .

لكن القنصل الفرنسي "بياريفال" عمد منذ عام 1820م إلى زعزعة العلاقات الجزائرية الفرنسية ، ففي رسالة وجهها وزير خارجية فرنسا الدوق" دي مورانسي " إلى الداي حسين في 20 أفريل1822م عبّر فيها عن استياء حكومته من موقف سلطات الجزائر التي رفضت أن ترد المخازن و المباني التي كانت تملكها الشركة الإفريقية ، فرد الداي حسين أن المباني جزائرية و هي بأيدي الإنجليز بعد حصولهم على امتياز الباستيون في 1807م .وفي عام 1826م رفع " دروفتي " القنصل الفرنسي في مصر تقريـرا إلى حكومته مفاده أن فرنسا بإمكانها استخدام "محمد علي" لاحتلال الجزائر، مقابل دفعها تكاليف الحملة، إلا أن المشروع لم يتم ،وعليه وصلت العلاقات الثنائية إلى القطيعة عام1827م .